

الرتاء في ديوان محمد سعيد العباسي (دراسة تحليلية)

أستاذ مشارك - كلية التربية - جامعة كسلا

د. ميرغني حمد ميرغني حمد

باحث - مركز بحوث ودراسات دول حوض
البحر الأحمر - السودان

د. صلاح التوم إبراهيم محمد

مستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى السعي لدراسة «الرتاء» في ديوان الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي كفن من فنون الشعر العربي القديم ، وتتبع هذا الفن الشعري من خلال قصائده، وتحليلها أدبياً وفنياً. تتبع أهمية الدراسة في كونها تبرز شاعرية العباسي، ومدى إجلاله للمرثيين نظراً لمكانتهم في نفسه . اتبع الباحثان المنهج الوصفي التحليلي ، وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها: إنّ موضوعات الرتاء في ديوان العباسي تدور حول رثاء الأهل ، والفقهاء ، والأصدقاء ، وسار العباسي في فن الرتاء على وقع القوالب التقليدية الموروثة في الشعر العربي؛ وهذا أضاف لشعره في الرتاء الحيوية والجرس الموسيقي الحزين ، وقد تفرّد بهذا النوع الشعري على سائر شعراء السودان .

الكلمات المفتاحية : محمد سعيد العباسي ، الشعر، فن الرتاء .

Lamentation in Diwan of the poet Mohammed Saeed AL-Abbasi (An analytical study))

Dr.Margani Hamed Margani Hamed

Dr.Salah Eltoom Eibrahim Mohmmmed

Abstract:

The study aims to study the art of Lamentation in the volume of the Sudanese poet , Muhammad Saeed Al-Abbasi and to trace this poetic art . The importance of study in the poet's artistic ability . The researchers followed the descriptive analytical method. The study came from a number of results, the most important of which is: The lamentation poetry in , Muhammad Saeed Al-Abbasi volume revolves around crying and lamenting for parents, scholars, and friends .

Key words: Sudanese Poetry, Commiserating , Muhammad Saeed Al-Abbasi

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين الذي خاطبه ربه بقوله: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ {الزمر،30، وعلى آله وأصحابه الكرام؛ وبعد ...
إنّ فن الرتاء من الموضوعات البارزة في الشعر العربي، بل هو من أقدم الفنون الشعرية، وهو بكاء وتأسى منذ خُلِقَ الإنسان، ووجد أمامه هذا المصير المحتوم. وللرتاء صفتان يتميز بهما عن الفنون الشعرية

الأخرى: الصعوبة والصدق ، أما الصعوبة فأشار إليها ابن رشيقي : «إنَّ أصعب الشعر الرثاء ، لأنه لا يُعمل رغبة ولا رهبة»⁽¹⁾ ، وأما صدقه فلأنه يقال عند الجزع؛ سأل الأصمعي عربياً «ما بال المرثي أشرف أشعاركم؟» فقال: «لأننا نقولها وقلوبنا محترقة». ولكل أمة مرثيها، وأدباء السودان وشعراؤه من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المرثي، وقل أن تجد ديوان شعر سوداني يخلو من الرثاء؛ ومن هؤلاء شاعرنا الشيخ محمد سعيد العباسي، الذي تميز شعر الرثاء عنده بدرجة فائقة من الإتقان والجودة، وتعدد موضوعاته، الأمر الذي حمل الباحثان لدراسة موضوع الرثاء في ديوانه.

أسئلة الدراسة:

- ما مراحل نشأة وتطور الشعر السوداني؟
- ما أبرز فنون وأغراض الشعر السوداني ؟
- ما مفهوم الرثاء في اللغة والاصطلاح؟
- ما أبرز موضوعات فن الرثاء في ديوان العباسي؟

أهمية الدراسة :

أهمية هذه الدراسة تتبلور في الآتي:
تبرز شاعرية العباسي، ومدى إجلاله للمرثيين نظراً لمكانتهم.
الرغبة الصادقة لدراسة مكنونات جواهر الشعر السوداني لما يتمتع به من مكانة سامية .
السعي لدراسة «الرثاء» في ديوان الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي كفن من فنون الشعر العربي القديم ، وتتبع هذا الفن الشعري من خلال قصائده .
إثراء الأدب السوداني من خلال إبداعات الشاعر محمد سعيد العباسي في تناوله لفن الرثاء.
ندرة البحوث والدراسات التي تناولت موضوع فن الرثاء في شعر العباسي حسب علم الباحثين.

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة لتحقيق عدد من الأهداف هي :
لفت نظر الدارسين والمهتمين بالأدب العربي، ولا سيما الأدب السوداني إلى الكنوز الأدبية والفنية في شعر الرثاء السوداني.
السعي لدراسة «الرثاء» في ديوان الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي كفن من فنون الشعر العربي القديم ، وتتبع هذا الفن الشعري من خلال قصائده .
الوقوف على موضوعات فن الرثاء في ديوان العباسي وخصائصها .

منهج الدراسة:

اتباع الباحثان المنهج الوصفي التحليلي؛ وهو استقصاء ينصب على ظاهرة من الظواهر بقصد تشخيصها وكشف جوانبها وتحديد العلاقات بين عناصرها أو بينها وبين ظواهر أخرى، كما أنه لا يقف عند حدود الظاهرة وإنما يهدف إلى تقييمات ذات معنى بقصد التبصر بتلك الظاهرة⁽²⁾ .

أولاً- نشأة وتطور الشعر السوداني:

يقول الأستاذ مصطفى بشارة عن نشأة الشعر السوداني: «الشعر السوداني عريق في تاريخه، ويدل على ذلك ما وجده علماء الآثار من كتابات عن مناسبات الحياة المختلفة، وتراويل وتعاويد في المناطق

القديمة من معالم وحوادث أثرية، تشبه إلى حد بعيد في صياغتها ونظمها اللُّغة الشعرية في عذوبتها وجرسها»⁽³⁾، ويقول دكتور عبده بدوي: «بدأ الشعر في السودان شعبياً لا يخضع إلى اللُّغة الفصيحة وتقاليدها، وإن كان ينطوي على الأغراض العربية المتوارثة، كالمدح، والغزل، والحماسة، وقد نشأ كظاهرة طبيعية للحاجة إلى التغني بالحياة والتخفيف من ضرورتها»⁽⁴⁾، وذكر عون الشريف قاسم، أنَّ الشعر السوداني مر بأطوار أربعة⁽⁵⁾:

طور النشأة وتمثله فترة 1505 - 1821 وهي: الفترة التي تمثلها دولة الفونج، وأهم مواضعه المدح والرتاء.

طور النمو 1821 - 1881 وتمثله فترة الحكم التركي .

الطور الثالث يمتد من 1885 - 1898 وتمثله فترة دولة المهديّة .

طور الحدائث من 1898 وحتى اليوم وتمثله فترة الحكم الثنائي وما بعدها .

وقد قسم مؤرخو الأدب السوداني الشعر السوداني إلى أربع مراحل تاريخية: «مرحلة الأدب التركي ، مرحلة المهديّة ، مرحلة أعقاب المهديّة وهي تغطي النصف الأول من الحكم الثنائي وأخيراً ما بعد ثورة 1924م وتستمر حتى نهاية الحكم الثنائي . فقد كان لكل عصر نقلة حضارية تاريخية بقدر ما هو نقلة من حكم إلى آخر»، وقد سلك الشعر السوداني في مراحل المتعددة عدة اتجاهات، حددها الدكتور بلة مدني، نقلاً عن عبد المجيد عابدين⁽⁶⁾، كما يلي :

الشعر الشعبي الدارج .

الشعر الديني الصوفي الفصيح .

الشعر التقليدي الحديث .

الشعر التجديدي الفصيح .

ويرى الباحثان أنّ هذا التطور في الشعر السوداني يُعزى إلى الاهتمام الذي وجدته اللُّغة العربية الفصحى، من خلال الخلاوي والمعاهد الدينية والعلمية، إضافة إلى تلك الصلات الأدبية بين شعراء السوان وشعراء العالم العربي، لا سيما وفود طلاب العلم للأزهر الشريف بمصر.

ثانياً- فنون وأغراض الشعر السوداني:

تنوّعت فنون وأغراض الشعر السوداني منذ بداياته ونشأته الأولى، وذلك حسب ما تقتضيه أحوال الناس، وبناءً على الأهداف التي قيل من أجلها الشعر في كلّ مرحلة من مراحل تطوره، إلا أنّهُ بشكل عام كانت فنون-أغراض - الشعر السوداني هي نفسها فنون الشعر العربي على امتداد عصوره، والمطلع على الشعر السوداني يجد أنّ شعراء السودان عبر حقبهم الأدبية والشعرية المختلفة قد طرّقوا كل فنون الشعر المعروفة ، وفيما يلي أهم فنون الشعر السوداني :

الغزل: يعدُّ الغزل من أهمّ أغراض الشعر العربي على الإطلاق، إذ لا يخلو عصرٌ من العصور أو مرحلة من المراحل التي مرَّ بها الشعر إلا وأخذَ الغزل مساحةً واسعةً في ساحة الأدب، والغزل في الشعر السوداني اختلف بين مرحلة وأخرى حسب البيئة وطبيعة الحياة التي عاشها الشاعر، ولكن ما يميزه التزامه بالقيم المجتمعية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لذلك جاء غزلاً عفيفاً - غير حسي - وبعيداً

كل البعد عن الغزل الفاحش، والمتتبع للشعر السوداني يلاحظ ذلك بوضوح، ومن ذلك قول إدريس محمّد جماع:

والسَيْفُ فِي الْعَمْدِ لَا تُخَشَى بَوَاتِرُهُ وَسَيْفُ عَيْنَيْكَ فِي الْحَالَتَيْنِ بَتَّارٌ
وكقول التجاني يوسف بشير في قصيدته (تجري مع الحب إلى غاية):
يَا صَحْوُ دُنْيَايَ وَأَحْلَامِهَا وَرِقَّةَ الْعَابِدِ فِي زُهْدِهِ

المدح: من أغراض وفنون الشعر السوداني الذي كانت دوافعه الإعجاب وتشجيع القيادات الدينية والسياسية والمشايخ، وبالتالي اختلف عن المدح الذي سلكه شعراء العصور الأدبية في الشعر العربي، الذي كان معظمه من أجل التكسب، وقد كثّر في شعر المديح التحدث عن الزهد والقناعة والبعد عن سفاسف الأمور وصغائرها، فيها هو الشيخ الطيب أحمد هاشم يقول:

إِنْ سَارَ غَيْرِي لِلهَوَانِ وَلِلهَوَىٰ فإِلَى الْعُلَا وَالْمُكْرَمَاتِ أَسِيرٌ⁽⁷⁾

وبطبيعة الحال لم يفت شعراء السودان تناولهم لحياة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومدحه بأفضل الأقوال، وتتزاحم علينا الأشعار حين نريد أن نختار منها، يقول الكردي:

أَهْوَى النَّبِيَّ وَأَرْجُو مِنْ كَرَامَتِهِ خَيْرًا وَأَطْمَعُ فِي عَقْبِي شَفَاعَتِهِ⁽⁸⁾

الهجاء: لمكان الدين عند الشعراء السودانيين، لا نجد الهجاء غرضاً ذا بال في أشعارهم، ونلاحظ أن الشعراء الذين نظموا في هذا الغرض لم يطيلوا فيه، بل ربما ذكروا البيت والبيتين ومروا به مروراً سريعاً، يقول الأستاذ صالح عبدالقادر يهجو ذليلاً أحدث نعمة فطخى أن رآه استغنى، في قصيدة مطلعها:

لَا تَفْرَحَنَّ بِنِعْمَةٍ إِنَّ الزَّمَانَ لَهُ انْقِلَابٌ

إِلَى أَنْ يَقُولَ: أَنْسَيْتَ نَوْمَكَ فِي التُّرَابِ فَصَرْتَ تَحَكُّمًا فِي الرِّقَابِ⁽⁹⁾

يقول الأستاذ العمري عن الهجاء في الشعر السوداني: «ربما رق الهجاء وتبدل ولكنّه بعد ليس

أليم الوخز، ولا نافذ السهم»⁽¹⁰⁾.

الحماسة والفخر:

يعدّ هذان الغرضان من أشهر أغراض الشعر السوداني خلال كثير من المراحل التي مرّ بها، فاشتملا على البطولات والشجاعة والصدق والكرم والعفة والافتخار وغيرها، ولا غرو في ذلك فأهل ورموز السودان تميزوا بالشجاعة والحماسة والقوة والكرم، ومن ذلك نجد أحد الشعراء يصور أحوال قومه، فيقول:

أَيُّهَا الدَّهْرُ أَنَا مِنْ مَعْشَرِ حَكْمُوا الرَّأْيِ وَهَزُوا الْعِلْمَا

فَأَسْأَلِ الْعَالَمَ عَنَّا إِنَّنَا أُمَّةٌ كُنَّا وَكَانُوا عَدَمًا⁽¹¹⁾

الرثاء:

وهو أحد أنواع شعر المديح إلا أنه يتعلق بذكر خصال وصفات الشخص الميت مصحوباً ذلك بالأسى والحزن والتفجّع، وقد طرق الشعر في السودان هذا الفن الشعري برثاء الزعماء الدينيين ورجال التصوف والعمد والمشايخ وفقد الأبناء والوالدين والأقارب، وقد كان منتشرًا وما يزال، بسبب النسيج المجتمعي السوداني المترابط في النواحي الاجتماعية والدينية، واستهل العباسي فن الرثاء برثاء والده الأستاذ محمد شريف نور الدائم، قائلاً:

حَيِّ الدِّيارِ وَسَلِّها كَيْفَ أَرَدَها رَيْبُ المُنُونِ بِسَهمِ ما تَخَطَّها⁽¹²⁾

الحكمة: أحد أغراض الشعر العربي التي تنطوي على ذكر أفكار صحيحة هادفة بأسلوب سلس وسهل وجميل، وتحاول الحكمة دائماً تحقيق الخير والصواب ونبذ الخطأ والشر، ويجمع شعر الحكمة بين دقة التشبيه والإيجاز وقوة الألفاظ وروعة التعبير، ويظهر هذا الفن في الشعر السوداني كثيراً في خامته القصيدة، ولم يفرد الشعراء السودانيون قصائد قائمة بذاتها عن فن الحكمة، بل كانت الحكم تأتي ضمن النص الأدبي وفي ثناياه، ومن ذلك قول العباسي في قصيدته «يوم التعليم» التي اختتمها بحكمة وموعظة، فيقول:

عَسَى الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ عَن قَدَرٍ يُزَجِّي لَنَا مِن سَمَاءِ الفَتْحِ إِعْداقاً⁽¹³⁾

محمد سعيد العباسي (نسبه ومولده ، شعره وشاعريته) :

أولاً - نسبه ومولده :

هو محمد سعيد بن محمد شريف بن نور الدائم بن البشير العباسي مؤسس الطريقة السمانية في مصر والسودان . ولد بعراديب ولد نور الدائم بالنيل الأبيض عام 1880م، ثم انتقل به والده - أثناء الثورة المهديّة في السودان - إلى قرية الشيخ الطيب «شمال مدينة أمدرمان» حيث تقيم الأسرة الآن⁽¹⁴⁾. نشأ العباسي في أسرة كبيرة ذات زعامة دينية ، لها كثير من المريدين والأتباع ، وكان لها عدد كبير من المساجد والخلوى، يقول دكتور صديق الريح: «نشأة العباسي في أسرة دينية ، أثر في تكوين وجدان الشاعر وعقليته ، كما تأثر بالصفاء الروحي الذي كان لأسلافه وتمسكهم بأهداب الدين والفضيلة»⁽¹⁵⁾، وقد قال العباسي عن آبائه وأجداده مفتخراً بهم :

وكيف أقبل أسباب الهوان ولي آباء صدق من الغر الميامين

النازلين علة حكم العلا أبداً من زينوا الكون منهم أس تزيين⁽¹⁶⁾

ينتسب الشاعر العباسي إلى قبيلة الجموعية، وهي قبيلة ذات أصول عربية عرفت بالشهامة والكرم والنجدة ، يقول دكتور أحمد سامي: «اكتسب العباسي من صفات الجموعية سواد البشرية ، وتأثر بصفاتهم في الشجاعة والإقدام وعزة النفس التي لا تكون إلا عند الملوك ، واكتسب منهم أيضاً حب الحياة الرعوية وعدم الاستقرار، فقد أحب التجول في بادية الكبابيش بإقليم كردفان»⁽¹⁷⁾، توفي الشاعر العباسي عام 1383هـ الموافق 1963م، ورثاه عدد من الشعراء السودانيّين منهم عبدالله البنا في قصيدة مشهورة مطلعها :

صوني قناعك يا مليحة أو ذري وقفي مكانك وقفة المتحسر⁽¹⁸⁾

كما رثاه ولده القاضي الأستاذ الطيب العباسي ومن ذلك قوله :

أي أن أخل الناس أوفي وإن دعوا أجاب وإما أبهمو القول أعربا

وإن أسرع الساعون للمجد فاتهم وإن قبلوا الدنيا على ما بها أي⁽¹⁹⁾

ثانياً - شعر العباسي وشاعريته :

نظّم العباسي شعره على الموزون المقفى وجدد في موضوعاته، محافظاً على قوة السبك وجزالة اللغة مستمداً صوره من بيئة الشعر القديم، غير أنه خاض موضوعات عصره التي ارتبط أكثرها بتجربته الروحية والوطنية ولا سيما قضايا السودان، وفي شعره مسحة ذاتية فجاءت تجربته مزجاً بين روافد عدة تجمع بين الأصالة والمعاصرة كشأن رواد التجديد. و تتجلى علاقاته الإنسانية صافية مفعمة بالحنين في مراثيه، كما في

مراسلاته ، وذكرياته . وينطلق فن العباسي وأدبه من أماديء دينية عميقة الجذور في التصوف، كما يستمد قوته من لغة غزتها مشاهد البادية بمضاربها، ونيرانها، وانتقال الشاعر فيها من ماء إلى ماء، وانتجاعه فيها وتبعه مساقط المطر، يقول دكتور أحمد سامي: « يعتبر العباسي رائدًا لنهضة الشعر في السودان، وعلى رأس حركة الإحياء والبعث، متبعمًا تقاليد الشعر العربي القديم متأثرًا بروح البداوة والفروسية، وهو واحد من أكبر شعراء اللُّغة العربية المحدثين، أمثال أحمد شوقي، إلا أنه لم يجد حظه من الترويج والدعاية في كثير من الأقطار العربية»⁽²⁰⁾، وقد نشر له ديوان شعر بعنوان «ديوان العباسي» عام 1948م ، وأعيد طبعه للمرة الثانية متضمنًا قصائد منتقاة من حيث جمالية التعبير وعمق المعاني عام 2014م .

أما شاعريته فقد تناولها بالتفصيل كثير من النقاد والأدباء والباحثين، يقول دكتور سعد ميخائيل: «الشيخ محمد سعيد العباسي يعد في الطبقة الأولى من شعراء السودان ، فهو أسمى الشعراء خيالاً وأعلى منفساً، وأجوده مقافية ، متين الأسلوب يغوص على المعنى القريب، فينتزع لؤلؤة من بين أصداف، ويكسوه لفظاً متخيراً جزلاً لا وحشياً ولا مبتذلاً، ولعمري أنه هو الشاعر الفذ الذي لا ينحصر معناه في لفظه، وهو على كثرة نظمه لا ترى شعره إلا عربياً محضاً، لا تلتصق به كلمة دخيلة ، ولا يدنو منه أسلوب العامة ، وله القدر المعلى في كل ضروب الشعر»⁽²¹⁾، ويقول الطيب العباسي: «قد أعاد للشعر السوداني جدته وأصالته في هذا الغناء الذاتي الحار، بعد أن كاد يقتلها التكلف والتقمص، والبحث دون طائل في الموضوعات القديمة». ويرى الباحثان أنّ تلك المكانة الشعرية لم تكن بالطبع محض الصدفة، وإمّا هنالك عوامل عديدة توفرت لدي الشاعر للانطلاق لتلك المكانة السامية، وتربعه على عرش شعراء السودان ضمن شعراء آخرين، ومن تلك العوامل: حفظه للقرآن الكريم الذي نهل منه ثقافته الدينية والعربية، واطلاعه على دواوين الشعراء وكتب اللُّغة، وإلمامه بقواعد النحو والصرف، فقد حفظ ألفية ابن مالك، ومتن الأجرومية، ومتن الكافي في علمي العروض والقوافي، هذا بالإضافة إلا أنه نشأ في بيئة شاعرة، وتنقله في البادية ، خاصة بادية الكبابيش في غرب السودان، فالعباسي ومعاصريه أحمد محمد صالح، وعبدالله محمد عمر البنا، وعبدالله عبدالرحمن الأمين ، كان شعرهم تقليدياً ، ساروا فيه على مذهب القدماء من حيث اللُّغة والوزن والأغراض، واتجهوا به في الشعر الخطابي إلى الحنين إلى ماضي الإسلام⁽²²⁾.

ثالثاً- بناء القصيدة عند العباسي:

يقول دكتور إبراهيم السّعافين: «الشاعر محمد سعيد العباسي كغيره من الشعراء الذين عاصروهم، الذين تمثلوا التراث الشعري تمثلاً فنياً مخلصاً، صياغة وأسلوباً وصورة»⁽²³⁾، وذكر مقدم ديوان العباسي، الأستاذ محمد فريد أبو حديد، - مراقب التعليم الثانوي بوزارة المعارف المصرية وقتذاك - : «ساعة كنت فيها مع الشاعر الكبير المبدع الأستاذ عباس محمود العقاد، فجرى ذكر السيد العباسي وشعره، فانطلق الأستاذ العقاد يثني عليه في شعره وعقب على ذلك بثناء على فضائله ونبيل نفسه»⁽²⁴⁾. والملاحظ أنّ العباسي ينتمي إلى المدرسة الشعرية التي جاءت في أعقاب النهضة الحديثة، وقبل حركة الشعر الجديد، وعلى وفق هذا التصور فهو عمودي في بناء قصائده، محدث في رسم صورته المستمدة من واقعه، وهو إحيائي في بعض صورته، ووجداني في بعضها، ومحدث في بعضها الثالث. والشعر في نظر العباسي يعني رقة الشعور من خلال حروف كلماته الشعرية المتلاثلة بياناً وفصاحة ، المستمد من روائع العصر، حيث يؤكد ذلك بقوله:

غيري شدا فتعالوا اليوم فاستمعوا شعر النَّوْسي من تلحين إسحاق
شعر هو الأدب العالي أنسقه كالدرد عقدا وكالخيرى أطباقا
أحبو به كل من رقت شمائله منكم وبات إلى العلياء تواقا⁽²⁵⁾

يقول الدكتور مجدي عبدالمعروف: «إن الحديث عن البناء الفني للقصيدة يفرض علينا أن نتعرض لبعض القضايا المهمة التي تشكل في مجموعها القضايا الأكثر أهمية في بناء القصيدة ومنهجها الفني، وهذه القضايا هي: المطلع، التخلص، الخاتمة، وحدة البيت، ووحدة القصيدة»⁽²⁶⁾؛ وإذا نظرنا لمعظم قصائد العباسي نجد أنها التزمت في مطلعها بمقدمة غزلية، ويعزى ذلك إلى تأثير العباسي بالشعر القديم، ثم البيئة التي عاش فيها العباسي تشبه إلى حد كبير البيئة الجاهلية؛ فالعباسي كان في حياته مولعاً ومحباً لبادية الكبايش مفضلها على حياة المدن مستعينا في ترحاله على الإبل.

والمتتبع لديوان العباسي يرى أنه يجيد التخلص في كل قصائده كما أجاد مطلع قصائده، فنلاحظ - مثلاً - في قصيدته «يوم التعليم» يبدؤها بذكر أيامه الطيبة مع المحبوب، فيقول:

مالي وللخمر رِقْ الكأس أوراقا وللصباة تُصلي القلب إحراقا
مضى زمانا تساقينا الهوى بهما في فتية كرموا وجداً وأشواقا⁽²⁷⁾

ثم نراه يحسن التخلص من مقدمته الغزلية، ليلج إلى غرضه الرئيس، ليعطي القارئ صورة جميلة، وفي هذا دعوة ونداء للاقبال لطلب العلم، بل دعوة للاستمرار في تحصيل التعليم من المهد إلى اللحد، فيقول:

العلم يا قوم ينبوع السعادة كم هدى وكم فكٌ أغلالاً وأطواقا
فعلموا النشءَ علماً يستبين به سبل الحياة وقبَل العلم أخلاقا⁽²⁸⁾

أما عن خاتمة قصائده نجده كثيراً ما يهتم بها باعتبارها آخر ما يترك الأذن فيظل صداها عالقاً بالنفس، فها هو يختم قصيدته «يوم التعليم» بحكمة وموعظة، إذ يقول:

عسى الذي خلق الأشياء عن قدر يُرْجي لنا من سماء الفتح إغداقا⁽²⁹⁾

والناظر إلى ديوانه يلاحظ أن الخاتمة عند العباسي عبارة عن حكمة أو موعظة تحمل خلاصة تجارب إنسانية، كما نلاحظ كثيراً ما تشمل الخاتمة عنده حمد الله تعالى والإيمان بقيم الدين الفاضلة، بجانب الحكم وخلاصة التجربة، ومن ذلك قوله في قصيدته «آمال السودان في ملك الوادي»:

والله أحمد حين أبرز للورى من غيبه ما كان سرّاً مضراً⁽³⁰⁾

أما بحور الشعر التي استخدمها العباسي، فجاءت متفاوتة، فقد أكثر من بحور بعينها، كالبيسط والكامل والخفيف، وكان مقلداً في بعضها كالرجز والمتقارب والمنسرح، يقول أحمد سامي: «إن العباسي كان يميل إلى استخدام الأوزان المنبسطة مثل الكامل، والبسيط، والخفيف، والطويل، وهذه الأوزان تتماشى مع فخامة العبارة التي يتوخاها العباسي في أسلوبه البدوي، كما تتماشى مع الأصوات الجهيرة، والمقاطع القوية التي تناسب الأسلوب البدوي أيضاً»⁽³¹⁾.

ويرى الباحثان أن شاعرنا العباسي تميز بالتزامه الصارم بشكل القصيدة العربية المعروفة، التي تلتزم الوزن والقافية، وربما كان مرد ذلك طبيعة حياته التي قضاها في البادية، التي تشبه إلى حد كبير حياة البادية

في الجزيرة العربية، وقد تأثرت تجربته بالوقوف على الأطلال والسير في الصحراء، وذكر النسيب في معظم قصائده.

معنى الرثاء وأنواعه:

جاء في لسان العرب مادة رثا، الرثاء: هو البكاء على الميت ومدحه، يُقال: رثى فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثيه، إذا بكاه بعد موته⁽³²⁾، وجاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري: «المرثية مديح الميت، والفرق بينها وبين المديح أن تقول: كان كذا وكذا، وتقول في المديح: هو كذا وأنت كذا؛ وينبغي أن تتوخى في المرثية ما تتوخى في المديح، إلا أنك إذا أردت أن تذكر الميت بالجوّد والشجاعة تقول: مات الجود، وهلكت الشجاعة، ولا تقول: جواداً وشجاعاً، فإن ذلك بارد غير مستحسن⁽³³⁾. ويقول قدامة في الرثاء: «ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لميت، مثل: كان، تولى، قضى نحبه، وما أشبه ذلك»⁽³⁴⁾.

وعرّف الهاشمي في جواهر الأدب «الرثاء»، بقوله: «هو تعداد مناقب الميت وإظهار التفجع والتلهف عليه، واستعظام المصيبة فيه»⁽³⁵⁾. وشعر الرثاء أساسه الوفاء أو السجية، إذ يقضي الشاعر بقوله حقوقاً سلفت، أو يرسل تعداداً لمآثر الأهل، وهم يجمعون في رثائهم بين التفجع والأسف والتلهف والاستعظام. ويقسم شوقي ضيف الرثاء إلى ثلاثة ألوان: الندب، التأبين، والعزاء، أما الندب فبكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت، فيئن الشاعر ويتفجع، إذ يشعر بلطمة مروعة تصوّب إلى قلبه. وليس التأبين نوحاً ولا نشيجاً على هذا النحو، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، إذ يختر نجم لامع من سماء المجتمع فيشيد به الشعراء منوهين إلى منزلته. والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين، إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصدها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة؛ وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة⁽³⁶⁾.

موضوعات فن الرثاء في ديوان العباسي:

عكف الباحثان على دراسة ديوان العباسي - طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، (1948) - ولاحظا أنه يتكون من ثلاثة أبواب كبيرة بما فيها قصائد الرثاء، والجدول التالي يبين نسب ما يحتويه الديوان من قصائد الرثاء والقصائد الأخرى:

الباب	نوع القصائد	عدد القصائد	النسبة %
الأول	الاجتماعيات	28	63,6%
الثاني	في الرثاء	9	20,5%
الثالث	مقطعات	7	15,9%
المجموع		44	

من الجدول نلاحظ أن عدد القصائد التي يحويها الديوان أربعة وأربعين قصيدة؛ وقصائد الرثاء وحدها تمثل نسبة 20,5% - أي حوالي ربع قصائد الديوان - . وبالتالي يكون العباسي أفرد في ديوانه باباً كاملاً عن الرثاء وهو ما يدل على مدى وفائه وإخلاصه لمن حوله من الأهل والأخوان والفقهاء والشيوخ والأحبة. ويحفل الديوان إلى جانب الرثاء، بمعظم فنون الشعر: الغزل، الحماسة، الفخر، والهجاء؛ ولكن يظل هناك فنان طاغيان فيه هما: الفخر، والغزل. أمّا المدح فلم يفرده له قصائد بعينها، بل جاء مدحه في ثنايا

بعض القصائد ، وكان مدحه ليس لغرض نيل العطايا ، إنما جاء من أجل الإعجاب والثناء والتقدير، يقول في إحدى قصائده:

لا تسقينني بكأس المادحين فهم رواد مرحمة عباد مقصود⁽³⁷⁾

أما فن الهجاء فلم ينل حظاً وافراً في ديوانه ، وقد جاء هجاءه عاماً في ذم الحضارة الغربية، والتحزب، وخدام السياسة، وهذا إن دل إنما يدل على أن العباسي ذو نفس سمحة وخلق كريم، يقول في قصيدته « من معاقدني » :

جزى الله هاتيك الحضارة شر ما جزى من تصاريح الزمان المعاند

فلم تك يوماً والحوادث جمّة حمى لضعيف أو صلاحاً لفاسد⁽³⁸⁾

ويقول في نفس الديوان، عن ذم التحزب والتشردم:

إِنَّ التَّحزِبَ سُمٌّ فَاجْعَلُوا أَيْدِيَّ يَا قَوْمٍ مِنْكُمْ لِهَذَا السُّمِّ تَرْيَاقاً⁽³⁹⁾

وجاء فخره بقومه وأبائه وأعمامه، فيقول:

بأبي وَمَنْ كَأَبِي افتخرت وفتكم بالزهر أعمامي أمان الجان

فلئن رَعَمْتُمْ أَنْ فِيكُمْ مِنْهُمْ قُولُوا فَلانٍ فِي كَمَالٍ فلان⁽⁴⁰⁾

وقد تناول الشاعر فن الغزل، الذي كثيراً ما جاء في مطلع قصائده، يقول الباحث أشرف نور الدائم: «والناظر إلى غزل العباسي يلحظ أن معظمه غزل رمزي، فمثلاً يستخدم اسم «هند» ويرمز بها للحرية»، كما في قوله:

لا تَخْطُبُوا هِنْدَ الرِّبَابِ فَهِنْدُ غَالِيَةِ المَهْرِ⁽⁴¹⁾

موضوعات الرثاء في ديوان العباسي:

إنّ الرثاء في ديوان العباسي، ثلاثة اتجاهات:

الأول- رثاء الأهل والأقارب ، وركز العباسي في هذا الاتجاه على رثاء والده الأستاذ محمد شريف نور الدائم، الثاني - رثاء الشيوخ والفقهاء من أهل الفضل والكرامات، والثالث- رثاء الأصدقاء المقربين ومَن كان لهم تأثير مباشر في حياته؛ وفيما يلي بيان لموضوعات واتجاهات فن الرثاء في ديوان العباسي:

أولاً- رثاء الأهل والأقارب:

استهل العباسي باب الرثاء في ديوانه، برثاء والده الأستاذ محمد شريف نور الدائم، في قصيدته « رثاء أبي»، ومطلعها :

حَيِّ الدِّيارِ وَسَلْها كَيْفَ أَرْدَها رَيْبُ المُنْتُونِ بِسَهْمِ ما تَخَطَّها

وَحَيِّ مَنْ قَدْ نُوِّوا فِيها وَقَلَّ لَهم يَرْعَاكُم اللهُ بِالسَّقِيا وَيَرْعَاها⁽⁴²⁾

افتتح العباسي مرثيته بمقدمة طليعية، وبهذا يكون قد خالف الطريقة المألوفة في المرثية العربية التي تتجرد عادة عن المقدمات الطليعية أو الغزلية ؛ ثم ينتقل إلى وصف مكانة والده، فيقول:

هو الشريف بن نور الدائم بن أبي الهدى الذي نال منها ما تمنها

الطيبِيُّ الذي طابت شمائله فحاز من درجات الفل أسماها⁽⁴³⁾

فوالده الشيخ محمد شريف نور الدائم كان خليفة للطريقة السمانية وزعيماً طائفيّاً كبيراً تتلمذ على يديه كثير من الأئمة والعلماء بالسودان، فقد كان أستاذاً للإمام محمد أحمد المهدي زعيم الثورة المهديّة في

السودان، فلا غرو في أن يضعه في مرثيته في هذه المكانة العالية ، بالإضافة إلى أن والده هو أستاذه ومربيه ومعلمه ، فكان يقول عنه: « إني ابنه، فأنا لسان صدقه من بنيه، سلكت طريقه ودعوت إليه على بصيرة أنا ومن اتبعني، ولا أزال أسأل الله أن يعينني على أداء ما يفرضه عليّ واجب الأبوة والأستاذية»⁽⁴⁴⁾ .

ويعدد الشاعر فضائل وخصال والده في مواضع متعددة من مرثيته، فيقول:

يزيل عن مشكلات العلم منطقته براقع الوهم عن زاهي محياها

وإن تكلم في علم السلوك له فيه عبارات ذوق ما أحيلاها

سلوا مآثره هذي فإن لها خبراً فهل جاء ذو فخر فساماها⁽⁴⁵⁾

وعلى هذا المنوال حرص شاعرنا على الملاءمة بين المرثي وسجاياه، فضلاً على إثبات الصفات والخصال والقيم الرفيعة لوالده (السيد السند، الشريف، الطيبي، مصباح هدى، به الفضائل ماست في مطارفها،... إلخ) ، وبهذا يكون قد سلك في مرثيته السبيل الذي اختطه شعراء الرثاء منذ القدم، وهو تعداد صفات المرثي وذكر سجاياه. وهنا لابد للإشارة إلى أن شاعرنا تخير من الألفاظ تلك الصفات التي تليق بمكانة والده الدينية والصوفية . وبالتالي نلاحظ أن شاعرنا يعكس على الأقل شخصية دينية نموذجية من الشخصيات السودانية أكثر من كونه والدًا له .

وقد عبّر العباسي عن حزنه وأسأه لفقد والده وكان لفقدته أثراً بالغاً في نفسه، فيظهر عن لواعجه وأشجانه، ويحنّ إلى الماضي الجميل حيث يغدو الأب الركيزة الأساسية وملاذه الأول عند الخطوب، فيعبّات الدهر على فقده، فيقول:

يا دهر جرعتني من فقده غصصاً قد كان إن نزلت سوحى تولها⁽⁴⁶⁾

وشاعرنا بحكم اتمائه وتكوينه يؤمن بحتمية الموت ووقوعه، فلا بد من الشعور بأن الموت قضاء من الله وقدر مكتوب ، فيدعو لوالده بأن يطيب الله ثراه، وأن يجعل الله قبره روضه من رياض الجنة، فيقول:

واستدر على ترب تضمنه من صوب سارية لرضوان أرواها

ترب هي الجنة المأوى لنانزلها أعظم بساكن جنات وسكانها⁽⁴⁷⁾

إن الأثر الديني والصوفي لشاعرنا يظهر بوضوح في مرثيته، فنراه يقول:

لو أن من حلمه مثقال خردلة من فوق مضطرب الأمواج أرساها

دعاه مولاه محبوباً على عجل لمقعد الصدق في الأوى فلبهاها

لله أشكو زماناً من تقلبه أقرّ عيني به واليوم أبكاها⁽⁴⁸⁾

فالألفاظ (مثقال خردلة ، مقعد صدق ، أقر عيني) كلها مستوحاة من القرآن الكريم ، ولا غرو في ذلك، فمظاهر ثقافة الشاعر العباسي مستمدة من حفظه للقرآن الكريم، ودراسة العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية، إلى جانب البيئة الصوفية التي نشأ فيها.

وللعباسي في هذا الجانب قصيدة أخرى في رثاء الأهل والأقارب بعنوان «آلي» افتتحها أيضاً بمقدمة طلبية، يرثي فيها آله، ويعدد مآثرهم وفضائلهم، من ذلك قوله:

نزلوا على حكم اللبالي بعد أن كانت ترى منهم بحال العاني

ودعوت إخواني وأين مكانهم مني ألا لهفي على أخواني⁽⁴⁹⁾

فيقول إنَّ آله نزلوا على حكم الزمان ورضوا بما جاء به من أحداث ، وقد كانت الليالي طوع أمرهم كالأسير الخاضع الذليل يأمرونها فتأتمر ويملاؤها بالفضل والمكرمات، فيتحسر ويحزن على فراقهم . ويواصل العباسي في مرثيته في تعداد فضائل آله، ورفعتهم لصروح المجد، وسيادتهم لقومهم بما بذلوه من مكرمات، فيقول:

هم صيروا نهج الهداية واضحاً للطالين قصيهم والداني

نظروا إلى الدنيا بعين بصيرة فتحولوا عن ذا الوجود الفاني

مالي أحوال من مآثر فضلكم ما بعضه في العد قد أعياني⁽⁵⁰⁾

فقد عبر العباسي عن ما في داخله من أحاسيس وفقدان لآله، فجاءت مشاعره صادقة نابغة من القلب، ففقد الآل لها وقعها الأليم، ولا سيما إن كانوا من أصحاب المآثر الطيبة، وأصحاب الحل والعقد.

ثانياً- رثاء الشيوخ وسادة القوم:

طبيعي أن يكون للشيوخ وسادة القوم مكانهم في الرثاء، إذ كانوا يتصلون بحياة الشعراء اتصالاً مباشراً إما من الوجهة الثقافية العامة، وإما من الوجهة الدينية، وقلما مات صاحب فكر أو صاحب أثر بارز إلا نعاه الشعراء وتحدثوا عن فضله وواسع علمه وقيمة ما ترك من ورائه. وتعد «مرثية محمد البدوي» لشاعرنا العباسي، في رثاء فقيه الإسلام الشيخ محمد البدوي شيخ علماء السودان من أشهر مرثياته، حيث يستهلها بفداحة الخطب لرحيل شيخ الإسلام - البدوي -، والوقوف على الطول؛ فيقول:

فقد الكرام كرام أمة أحمد خطب يهد عزيمة المتجدد

قف بي أخي على طولهم ولو مقدار وقفة ناشد أو منشد⁽⁵¹⁾

وقد استعظم شاعرنا المصيبة بفقدان الشيخ البدوي، فذكر مناقبه وعدد حسناته، في صورة أظهرت التفجع والتلهف عليه؛ فقال :

مات الإمام محمد البدوي من أحيانا لنا شرع النبي محمد

قطب العلوم المحتبي بردائها وبردتها يوم المشاهد مرتد

كان المديد الظل والحامي حمى السودان شاهد دعوة المستجد⁽⁵²⁾

ويواصل العباسي في قصيدته، بتعداد فضائل ومحاسن الفقيه ومقامه العالي، ويعزي أمة محمد صلى الله عليه وسلم في في هذا الفقد الجلل، قائلاً:

إني أعزي كل أمة أحمد بمصيبة الحبر الإمام محمد

يا ضيف أكرم من قرى رح في رضا مولاك للحسنى وصدق الموعد

أذنـــــــــــــــــاك ربك واصطفاك لقربه وهي انفرادك بالمقام الأوحـــــــــــــــــد⁽⁵³⁾

وختم العباسي قصيدته، قائلاً:

قسماً لقد مدَّ الزمان بموته صرح العلوم وزهر روضتها الندي

وتقلص الظلُّ الظليلُ وكورت شمسُ الكمالِ وغاب بدر السؤدد⁽⁵⁴⁾

وهذا من الشعر الانفعالي الصادق، الذي يصدر عن نفس مفجوعة، أصابها ألم الفقد؛ فبفقدته يرى أنَّ المعاهد والدور، فقدت فقيهاً وناصحاً ومرشداً؛ حاز من العلوم والبيان نصيباً وافراً. وفي قصيدته المشهورة «سيد العرب على التوم» يرثي شاعرنا الشيخ على ابن الشيخ القوم ابن الشيخ فضل الله بك ابن سام؛ وهو

ناظر قبيلة الكبابيش في السودان، ومن البيوت العريقة في الرئاسة، فقد تولى أبأؤه منذ قرون رئاسة القبيلة، وجده فضل الله بك الذي أعطاه الخديوي لقب «بك» وهو لقب لم يعط في زمانه لأحد من رؤساء العشائر بالسودان لغير اثنين فقط، فضل الله هذا وأحمد أبو سن⁽⁵⁵⁾، واستهل الشاعر مراثيته بقوله:

قَفْ مَهْتَوِي السَّمَّاحِ قَبْرِ عَلِيٍّ زَيْنِ أَهْلِ النَّدَى وَزِينِ النَّدِيِّ
جــــدَّتْ صَمْنُوهُ حُلُوَّ السَّجَايَا وَمُحَيَّا كِبَارِقِ الْوَسْمِيِّ⁽⁵⁶⁾

وقد خط يراع شاعرنا «العباسي» أفضل العبارات النثرية على هامش مراثيته عن «سيد العرب على التوم»، فكتب: «كريمًا يعطي أهل الفضل العطاء الجم، ويقري الضيف، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الزمان، وعندما مات بنت له حكومة السودان ضريحاً فخماً «بالحمراء» وهي كما يبنى على الأولياء»⁽⁵⁷⁾.

ثالثاً- رثاء الأصدقاء:

نلاحظ أن المرثي عند العباسي لم تكن من ذلك النوع الذي يمكن أن يوجه إلى أي مفقود، بل هي موجهة إلى شخصيات بعينها تفردت بصفات خاصة -دينية أو اجتماعية-، وهذه هي سمة مهمة في الرثاء، ومن الروائع الأدبية في الرثاء للعباسي قصيدته «وا أسفأ على يوسف» وفيها يرثي المرحوم الشيخ يوسف بدري التاجر المشهور والصدیق الحميم لشاعرنا العباسي، وفي مطلعها يقول:

داني إنَّ قلبي اليوم سالي دعانس ما لعدالي ومالي
نفضتُ يدي فما أنا ذو شبابٍ أُسرُّ به ولستُ خليٌّ بال
أبعد الأربعين وقد تلتها ثلاثٌ وهي مرحلةُ الكلال⁽⁵⁸⁾

ثم ينتقل إلى تعداد محاسن المرثي، وبيان أخلاقه الفاضلة وشمائله الفريدة، وما كان يتميز به من العلم والأدب والرفعة، ومنزلته، وكيف كان محبوباً وصاحب مروءة وفضل؛ فيقول:

سموت إلى العلا وكفأك فخراً بأنك بالسجايَا الغرَّ حال
كأنك قد ملكت لكل قلبٍ بما أعطيت من ذاك الجلال
كأنك للنوائب حين تدعى فِرندُ زانه حسن الصقال⁽⁵⁹⁾

ونلاحظ جلياً حزن الشاعر وتفجعه على وفاة صديقه «يوسف»، حيث يتمنى أن يفديه بروحه إن كان هذا ممكناً، فيقول:

ولو تفدى إذاً لفتك نفسي وما غاليثُ فيك ولن أعالِي
ولستُ عن البكاء بمستفيق وما أنا عنك طول الدهر سالي⁽⁶⁰⁾

وإذا رجعنا إلى كتب الأدب والتراجم نجد كثيراً من الشعراء رثوا أصدقاءهم وزملاءهم، فرباط الصداقة والأخوة في كثير من الأحوال أقوى من رباط الدم، فهذا أبو تمام يرثي على بن الجهم، بقوله:

غاضت بدائع فطنة الأوهام وعــــدت عليها نكبة الأيام
وغدا القريض ضئيل شخص باكياً يشكو رزيبته إلى الأقالم⁽⁶¹⁾

وكان أبو العلاء المعري كثير التلاميذ والأصدقاء، فلما مات أنشد على قبره أربعة وثمانون شاعراً مراثي يكونه فيها. ومن مرثي شاعرنا العباسي، مراثيته للمرحوم الشيخ إبراهيم التليبي؛ وهو الشيخ المعروف في السودان قاطبة بشعره وأدبه وورعه، وكان شاعراً قل أن يجاربه شاعر في زمانه، على حد قول شاعرنا العباسي:

شاعر إن شدا حسبناه يروي معجزات القريض عن بشاره⁽⁶²⁾ ونلاحظ أن هذه النغمة فيها تقدير وامتنان، واعتراف بجلال شاعرية المرثي؛ ثم يلتفت إلى مكانته، فيجمع بين اللفظ والصوت لتجسيم ألمه لفقدته الجلل، فيقول:

عاد روض الكمال بعد اخضراره يئسا واستحال حسن ازدهاره
فقد الغاب ليثه والمرءات فتاها والسرحُ حامي ذماره
بكت الأرض مَهْبِطَ الفضل منها والسماءُ الوضاء من أقماره⁽⁶³⁾
وتستمر القصيدة على هذا المنوال من الثناء والإطراء في شأن الشيخ «التلب»؛ كما نجد فيها ما يصور حزن شاعرنا وعظم المصيبة عنده، فموت المرثي في نظره موت للعلا والمكارم .
ونجد أن ختام المرثية لم يخرج عما عهد في مرثياته: دعاء للميت بالرحمة والمغفرة والقبول الحسن في جنة الخلد، فيقول:

راعك الله لن تُرَاعَ وهل ريع امرؤ في ضمانه وجواره
قَرَّ عيناً وابشر بمقعد صدقٍ لك منه في جنة الخلد داره⁽⁶⁴⁾
ومن مرثياته في أصدقائه المقربين أيضاً، رثاء فقيد الفضيلة الأستاذ عبدالقادر عبدالباسط القاضي، في قصيدة طويلة من اثنين وخمسين بيتاً، جاء في مطلعها:

ما لذا الدهر في صيالٍ وختلٍ يغتلي في حرب الكرام ويُصلي
قد دعونا فما أجـاب دعاءً وعدلنا فلم يـرِقْ لـعدل⁽⁶⁵⁾

إلى أن يقول:

ناوليني التي استقلت بعبدالقادر الشهم ذي الحجا والعقل
خطفته المنون في ومضة البرق وظل الغمامة المضمحل⁽⁶⁶⁾
فشاعرنا لم يختلف في رثائه عن أي شاعر آخر، فذكر الصفات الفضلى والأخلاق الحميدة والتقوى، وهي أمور تكسب المرثي مكانة وشأناً في القلوب. وواضح تأثر شاعرنا بأساليب القدامى في دأئه على المنون، وتصويرها كالوحش ينشب أظفاره، ولا حيلة في رده أبداً .

ويمض شاعرنا في مرثيته، ليبين أن المرثي لم يحفل بصديق و خليل مثله، وهو كذلك لم يصب خليل مثله، لذا يتمنى أن يفديه بنفسه، لولا أيامه لم يتبق منها إلا القليل وهي كناية عن «كبر السن»، فيقول:

لم أصب مثله صفياءً وظني أنه لم يُنصب من الناس مثلي
لـبيت أني لك الفداء وإن لم تُسبق مني الأيامُ إلا أقلي

ما يباني وقد نكرتُ بياني ما دموعي والدموع جهد المقل⁽⁶⁷⁾
ورثي شاعرنا أيضاً، الشيخ حامد محمد علي، في قصيدة طويلة من ثلاثة وسبعين بيتاً، تصور حزناً صادفاً ولوعة كبيرة وإحساساً بفراق أخ كان ذا مكانة خاصة وود منفرد لدى شاعرنا، فيقول :

كلُّ شيء سهلٌ على النفس إلا ما تعاني من فرقة الإخوان
جرفتُ هذه النوى خُلصائي واحداً واحداً بغـير تواني
لا أريد الحياة بعد ندامي كفاني ، فسـقد مـللتُ كفاني

ليس بيني وبينك اليوم إلا خُطوةٌ للحاق أو خُطوتان⁽⁶⁸⁾

فالعباسي تمنى أن يموت مثل أصدقائه، كي يستريح من ألم الحسرة ، فموتهم حطم نفسه وأهلكها؛ والموت أصبح منه قريباً، وهو الملاذ من مأساته. وما يزال يردد أمانيه باللحاق برفاقه الذين فارقوه وتركوه وحيداً حزيناً ، قائلاً:

كم تمنيت أن أحل مكاناً قد ثواه وأن يحل مكاني
وأناديه لأن يؤوب وهل أب إلي حيّ عنزة القارظان
لا أخاف الأحداث بعدك فلتجر سراعاً إليّ ملء العنان⁽⁶⁹⁾

وفي هذه الأبيات وغيرها، لوعة حقيقية ، لوعة الصديق الصدوق الذي يكاد يموت حسرة وأسى، بل يتمنى أن يكون مكان المتوفى؛ وهي مرثية تمتاز بالعاطفة الصادقة والشعور العميق بالحزن، ولا شك أن هذا التصوير الدقيق الذي رسمه شاعرنا للفقيد، يعد من ملامح التجديد والتطور في فن الرثاء السوداني، ومن ناحية أخرى يحتمل على التصوير في طياته صورة واضحة المعالم لما تركه الشيخ حامد من أثر لدى شاعرنا . ونلاحظ أن قصائد الرثاء في شكلها ومضمونها، جاءت متشابهة في ديوان العباسي، بل إذا نظرنا لقصائد الرثاء على امتداد العصور الأدبية؛ باستثناء العصور المتأخرة التي دخلت الفلسفة عليها، نجدتها متشابهة ؛ وربما ذلك يعزى لأن الموت واحد والانفعال أمامه واحد .

وعن الرثاء في ديوان العباسي يقول أحمد الطيب في كتابه «العباسي الشاعر التقليدي المجدد»: «وأنت تقرأ هذا الرثاء فلا تجد أن الرجل قد تفجع الحزين كحال الخنساء عندما بكت أخاها صخرا ، ولا هو استطاع أن ينهج منهج المعري في تعمق فلسفة الحياة والموت بل نجده قد وقع أسير القوالب التقليدية الموروثة التي تكتفي بتعديد مناقب وخصال الفقيد»⁽⁷⁰⁾.

خاتمة:

محمد سعيد العباسي - له الرحمة والمغفرة - في شعره الذي تناول فن الرثاء ، سار في الغالب على النهج التقليدي في مرثيته، فعنصر الحزن والألم ، وتأبين المتوفى، والدعاء له، والمواظب المستمدة من هذا الجو المشحون بالأسى، أمور ألفها الشعر العربي قديماً وحديثاً، وسيظل يألفها الشعراء والأدباء على مر الدهور ما حنت البشرية إلى آلهما وأحبابها الذين تفقدتهم. وقد توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج :

إن العباسي ضمن أشعاره قدر كبير من أشعار القدامى ومعاصريه، دليل على تأثره بعدد من الشعراء دون أن يخفى شخصيته المميزة .

سار العباسي في فن الرثاء على وقع القوالب التقليدية الموروثة في الشعر العربي، التي تكتفي بتعداد مناقب وخصال الفقيد، ولم يتعمق في فلسفة الحياة والموت، كالمعري مثلاً .

يحفل ديوان العباسي إلى جانب الرثاء، بمعظم فنون الشعر: الغزل، الحماسة، الفخر، والهجاء؛ ولكن يظل هناك فنان طاغيان فيه هما: الفخر، والغزل.

إن شاعرنا العباسي تميز بالتزامه الصارم بشكل القصيدة العربية المعروفة، التي تلزم الوزن والقافية، وربما كان مرد ذلك طبيعة حياته التي قضاها في البادية، التي تشبه إلى حد كبير حياة البادية في الجزيرة العربية.

إنّ موضوعات الرثاء في ديوان العباسي تدور حول رثاء الأهل، والفقهاء، والأصدقاء .
وضوح أثر القرآن الكريم في قصائد الرثاء لدي العباسي .
تفرد العباسي بفن الرثاء على سائر شعراء السودان، حيث جاء شعره في الرثاء قوياً معبراً عن الحزن
والأسى واللوعة، في صورة تعظم ألم الفراق .
الرثاء في ديوان العباسي محصور في تسع مراتٍ تتراوح بين قصيدة ومقطوعة، منها ما يمثل رثاء خاصاً
لأبيه وآله وأصدقائه، ومنها ما يكون رثاء عاماً كرثاء الشخصيات الدينية والعلمية.

التوصيات:

توصي الدراسة بالآتي :

- إجراء دراسات أخرى حول شعر العباسي تتناول جوانب ومجالات أخرى .
- اعتماد قصائد الشاعر العباسي التي تتضمن المراثي والقيم الدينية، ضمن مقررات التعليم العام والجامعي في السودان وفي الوطن العربي الكبير .

الهوامش:

- (1) ابن رشيقي، الحسن القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981، ص147.
- (2) العزاوي، رحيم يونس: مقدمة في منهج البحث العلمي، ط2، دار دجلة، عمان، الأردن، ط1، 2008م، ص98.
- (3) بشارة، مصطفى عوض الله: مواقف ورؤى في الشعر السوداني المعاصر دراسة أدبية، شركة السودان للعملة، ط1، 2008، ص9.
- (4) بدوي، عبده: الشعر السوداني، عالم المعرفة، الكويت، 1981، ص96.
- (5) قاسم، عون الشريف: حلفاية الملوك التاريخ البشر، دار جامعة أمدرمان الإسلامية للطباعة والنشر، ط1، 1988، ص34.
- (6) مدني، بلة عبد الله: تطور الشعر العربي في السودان، شركة مطابع السودان للعملة، ج1، 2010، ص19.
- (7) العماري، علي: الشعر في السودان، مجلة الرسالة، العدد 790، أغسطس 1948.
- (8) المرجع السابق.
- (9) المرجع السابق.
- (10) المرجع السابق.
- (11) المرجع السابق.
- (12) العباسي، محمد سعيد: ديوان العباسي: ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948، ص134.
- (13) المرجع السابق، ص67.
- (14) المرجع السابق، ص9.
- (15) الريح، صديق مصطفى: ثقافة الشاعر محمد سعيد العباسي، المجلة العلمية، جامعة الامام المهدي، العدد8، ديسمبر 2016، ص113.
- (16) العباسي، محمد سعيد: ديوان العباسي: ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948، ص11.
- (17) سامي، أحمد عبد الله: الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي، دار الإرشاد للطباعة والنشر، الخرطوم، 1968، ص19.
- (18) البنا، عبد الله محمد عمر: ديوان البنا، تحقيق علي الملك، دار جامعة الخرطوم، ط1، 1971، ص179.
- (19) الطيب العباسي، 1999، ص144.
- (20) سامي، أحمد عبد الله: الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي، مرجع سابق، ص19.
- (21) سعيد، ميخائيل: شعراء السودان، مطبعة رمسيس، ط1، القاهرة، 1923.
- (22) عباس، إحسان: الشعر السوداني، مجلة الدراسات السودانية، نصف شهرية، جامعة الخرطوم، كلية الآداب، العدد، 1971، ص6.
- (23) السعافين، إبراهيم: دراسة في أثر الشعر العربي القديم على مدرسة الإحياء في مصر، دار الأندلس،

- ط 1 ، 1981 ، ص 357.
- (24) ديوان العباسي، ص 13.
- (25) المرجع السابق، ص 16.
- (26) أحمد ، مجدي عبد المعروف: بناء القصيدة عند محمد سعيد العباسي، مجلة العلوم والتقانة جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، الخرطوم، السودان، مجلد 11، 2009، ص 148.
- (27) ديوان العباسي، ص 67.
- (28) المرجع السابق، ص 68.
- (29) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (30) المرجع السابق ص 25.
- (31) سامي، أحمد عبد الله: الشاعر السوداني العباسي ، مرجع سابق، ص 37.
- (32) ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر، بيروت، مادة: رثى.
- (33) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: الصناعتين، الكتابة والشعر، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2006، ص 121.
- (34) أبو الفرج بن جعفر، قدامة: نقد الشعر، الجزيرة للنشر، ط 1، 2006، ص 103.
- (35) الهاشمي، أحمد: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 2005، ص 446.
- (36) ضيف، شوقي: الرثاء، دار المعارف، مصر، ط 4، 1955، ص 7.
- (37) ديوان العباسي، مرجع سابق، ص 11.
- (38) المرجع السابق.
- (39) المرجع السابق.
- (40) المرجع السابق.
- (41) المرجع السابق، ص 134.
- (42) المرجع السابق، ص 135.
- (43) المرجع السابق، ص 9.
- (44) المرجع السابق، ص 135.
- (45) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (46) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (47) المرجع السابق، ص 138.
- (48) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (49) المرجع السابق، ص 139.
- (50) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (51) المرجع السابق، ص 145.
- (52) المرجع السابق، ص 146.

- (53) المرجع السابق، ص151.
- (54) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (55) المرجع السابق، ص152.
- (56) المرجع السابق، ص153.
- (57) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (58) المرجع السابق، الصفحة نفسها .
- (59) ضيف، شوقي: الرثاء، دار المعارف، مصر، ط4، 1955، ص77.
- (60) ديوان العباسي، مرجع سابق، ص161 .
- (61) المرجع السابق، ص162.
- (62) المرجع السابق، ص163.
- (63) المرجع السابق، ص165.
- (64) المرجع السابق، ص166.
- (65) المرجع السابق، ص167.
- (66) المرجع السابق، ص171.
- (67) المرجع السابق، ص174.
- (68) الطيب، أحمد الطيب: العباسي الشاعر التقليدي المجدد، 1999، ص82.